دموع البطل !

للأستاذ عمر عودة الخطيب

« شاهدت صورة للرئيس اللواء محمد نجيب يبكي متأثراً حين جاءته أم تحمل طفلها الصغير فوق ذراعيها ومن حولها أبناؤها الثلاثة تشكو له ما تعانى من حزن ومايقاسى أطفالها من بؤس فأوحت إلى بهذا المقال »

لا تموت الدموع إلا فى عيون الجلادين القساة ، والظالمين العتاة الذين يرتكبون جرائمهم الكافرة من غير أن يخفق لهم قلب أو يثور وجدان ، أو يستيقظ ضمير ... فهم كالوحوش الضارية تعدو على الفريسة وتمزقها بأنيابها الحادة غير عابئة بالأنات والآهات ... وهكذا كان الطاغية وأعوانه من السفاحين والإقطاعيين يرون الشعب التعس يكدح فى سبيل اللقمة ، ثم لاينال أدنى الغذاء ، ولا يظفر بأقل الكساء ، ولا يجد ثمن الدواء ؛ وهم فى لهوهم ومجونهم غارقون ، وفى أودية اللذة والضلال هائمون ، يرون بأعينهم الأطفال الذين شردهم بينهم ، والصغار الذين يتمهم ظلمهم ، والنساء اللواتى ترملن على أيديهم . يرون كل هذا فلا ينبض فيهم عرق بحنان ، ولا تجود لهم كف بإحسان ، ولا تبض عيونهم الجاحدة المتكبرة بقطرة من دمع ، وما يرونه من مشاهد البؤس فى الكبار والصغار والشيوخ والنساء يبكى الصخر الأصم ... ولكنها القلوب التى تتضاءل أمامها الأحجار ، ويتعلم الصخر منها دروس القسوة والجمود ، (وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ...)

هذه صورة الأمس الظلم المقيت ، الذى ذهب بحزى الطغاة وعارهم ، أما اليوم فقد أذن الله الرحمن الرحيم لهذا الشعب الصابر أن يقطف ثمرة الصبر التى أينعت ، وأن يستظل بفيء الحرية التى بسقت وأزهرت ، والتى رواها بدمه ، وغذاها بتعبه ، وصانها بروحه ، فخرج من صفوف الشعب القائد النجيب ؛ فكان لصر النقذ المخلص ، والحاكم العادل ، والحارس الأمين ، والبطل الحبيب ، فالتف حوله الشعب المظلوم يشكو إليه مالقى من عنت وأذى ، كما يجتمع الأبناء حول أبيهم يبثونه ما بنفوسهم من جراح وآلام ... فلم يترفع الرئيس عنهم ، ولم يشمخ بأنفه كبراً عليهم ، ولم يعتصم بحصن أو يتوارى فى قصر ، بل مشى بينهم فرحا بهم وفرحين به ، يسمع إلى مايقولون ، ويحقق مايأملون ، ويلبى مايطلبون ، باسم الثغر ، ثابت العزم ، راسخ المبدإ ... يأتيه المظلوم الصادق فيرفع عنه ظلامته ، ويلوذ به الشيخ العاجز فيخفف من مصابه ... وتجيئه هذه الأم المحزونة ومن حولها أبناؤها ، وعلى وجوههم علائم البؤس ، وفى صدورهم لذعة اليتيم ، لأن من كان يطعمهم من جوع ، ويكسوهم من عرى قدمات ... وتركهم صغارا حيارى يعانون قسوة الأيام ، ولوعة الحرمان ... فيذكر الرئيس البطل أن البهاء قد أعدته ليكون أبا لهؤلاء اليتامى ولكل يتيم فى مصر فقير ... فلا يملك قلبه من البكاء ، ولا يقوى على حبس الدموع فى عينيه !

وكيف لا يبكى ؟ وهو الأب الرحيم لهذا الشعب الذى أجاعه ظالموه وأذله حاكموه ، وسرقه حراسه الأشداء ، وروعه طغاته الأقوياء ... بل إنه ليبكى ويسكب الدموع ... دموع الحزن العميق والفرح الغامر ... لأن الله قد اختاره ليمسح مابالقلوب من أحزان ، ويطهر ما بالنفوس من أدران ، ويداوى ما تركه الماضى من علل وأسقام ... وقد أعانه الله فحطم (هبل) البغى والضلال ، وسحق أعوانه وعابديه ، فهو يذرف دموع الفرح لما حقق لأمته وبلاده من حياة حرة كريمة ... فإذا رجع من المعركة الظافرة إلى الشعب رأى ماخلفه فيه المقهورون من مآثم ، وما تركوه من مظالم ، وشاهد فصولا من البؤس حية لايقوى على خلقها الخيال ... فتثور فيه العاطفة الصادقة ، ويشيع فى أوصاله التأثر العميق ، ويخفق قلبه الكبير بالعطف والحنان ... فيبكى ويذرف الدمع السخين !

رعاك الله أيها البطل

إن هذه الدموع التى تنبع من قلبك الطاهر ، وثيقة الرحمة والإخلاص ، وبرهان البطولة والإيمان ، وهى — لعمرى — قصيدة لا يحسنها إلا من وهبه الله قلب ملاك وروح شاعر ، ولها فى القلوب فعل السحر ... ويدرك معناها من خبر هذا الضرب من الشعر !

عمر عودة الخطيب